وسائل الإعلام والهوية الثقافية بين التعزيز والاستلاب

إعداد

الدكتورة : سيفون باية أستاذة محاضرة صنف أ في علوم الإعلام والاتصال

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

البريد الالكتروني bayasifoune@yahoo.com

الملخص :

في ظل التطور الحاصل في تكنولوجيا الاتصال وشيوع ظاهرة العولمة باتت الهويات الثقافية للشعوب مهددة بالاندثار خصوصا في ظل المتغيرات العالمية الراهنة ، وهيجان أخطبوط العولمة الذي بات يخرب ويدمر كل ما هو أصيل ليحل محله الجديد والغريب الأمر الذي قد يؤدي إلى ذوبان الهويات الوطنية في هوية عالمية واحدة ينشأ وسطها الإنسان الكوني (الإنسان المعولم).

ومما لاشك فيه أن لوسائل دورا هاما ومؤثرا لتعميق الهوية الثقافية الوطنية والحفاظ عليها من خلال بلورة المواد الإخبارية بشكل وظيفي يدعم هويتنا الوطنية خصوصا في ظل ما تشهده من انتشار واسع فإدراك القائم بالاتصال لأبعاد قضية الهوية الوطنية يساهم في معالجة القضية ودعم الهوية الوطنية.

ومن هنا تبرز أهمية البحث في طبيعة العلاقة بين وسائل الإعلام والهوية الثقافية الوطنية في ظل العولمة

الكلمات المفتاحية : وسائل الإعلام – العولمة – الهوية الثقافية

The media and the cultural identitiy between the progress and obduction

Due to the emeging développement in the communication technology and the spread of globalization ,the cultural identities of nations are threatned now of exitinction especially under the current international changes besides the great spread of globalization becomes a source of vandalism that destroyed every thing

Genwine wich has been replaced by what is new and strange this would make the idendties melted in one single iternatinal identity by wich the universal humanbeig arise

There is no doubt that media is playing an important role in establishing the national cultural identity through a functional formulation of news wish support our national identity particularly under the great spread of technology additionally knowing the dimension of national identity will contribute to solve the identity problematic

From here , the important of research's on the relationship between the media and the cultural identity under the globalization highlighted

Key words : media , globalization , cultural identity

مقدمة :

يشكل الإعلام المنظومة التي تحفظ الهوية، والتي تؤرخ لها، والتي تنقلها من جيل إلى جيل بامتياز، فإذا كان الإعلام يرتبط ارتباطا عضويا بمكونات الهوية الوطنية فإن مخرجاته تخدم بدون أدنى شك هذه الهوية وتعمل على صيانتها وتقويتها وتنميتها في إطار التنمية المستدامة والحركة التي يعيشها المجتمع ضمن التحولات والتطورات العالمية .

أما إذا كانت المنظومة الإعلامية مهزومة وغير منتجة ومستقبلة ومستهلكة فقط فإنها بدلا من المساهمة في الحفاظ على الهوية الوطنية وزرع مكوناتها في المجتمع فإنها تتنصل من هذه المكونات وتفرز قيما وأفكارا ومعتقدات وسلوكات تتنافى وتتناقض وتتنافر مع كل ما هو وطني وقومي ومحلي. وهذا ما يؤدي إلى ظاهرة الاغتراب والانسلاخ والذوبان في الآخر وتقمص واقع وشخصية غريبة لا تمت بواقع وشخصية الوطن والبلد والأمة. وعلى حد قول "فرانتز فانون" في كتابه "أقنعة بيضاء وبشرات سوداء"، يلبس الفرد في ظل ظاهرة الاغتراب والانسلاخ أقنعة الآخر ما يجعله تائها في عالم ازدواجية الأنا والشخصية والهوية، وفي النهاية يجد نفسه مثل اللقيط الذي لا يُعرف له أصل ولا نسب

إذ باتت تكنولوجيا الاتصال الحديثة من أهم الأسس والركائز لمشروع عولمة فكرية وثقافية حيث أصبحت هناك شركات عالمية تتنافس لتقديم سلعتها الثقافية إلى المستهلك في إخراج مثير يضع المشاهد تحت وطأة إغراء لا يقاوم حيث يتم تكريس منظومة جديدة من القيم والمعايير مخالفة لمعايير وقيم مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

وفي ظل التحديات سالفة الذكر فان إدراك القائمين بالاتصال في وسائل الإعلام ووعيه بالسمات المميزة للهوية الثقافية للمجتمع ، يجعلهم قادين على طرح التقارير والمواد الإخبارية وصياغتها بشكل وظيفي يدفع بدوره الأفراد نحو الانخراط في الأحداث والقضايا المهمة والتفكير فيها بوصفها تخص آخرين ممن تجمعهم بهم وشائج الهوية الوطنية الواحدة بما يدعم بدوره مشاعر الانتماء والتفاعل داخل إطار المرجعية الثقافية الواحدة.

انطلاقا من ما سبق سنتطرق لدور وسائل الإعلام في تعزيز الهوية الثقافية في ظل العولمة التي يحاول الغرب من خلالها جاهدين لاستلاب هوياتنا .

١- ماهية الهوية الثقافية :قبل التطرق لمفهوم الهوية الثقافية يجدر بنا الإشارة لمفهو الهوية

١-١ مفهوم الهوية :

الهوية: الهوية مأخوذة من "هُوَ .. هُوَ" بمعنى أنها جوهر الشيء، وحقيقته، لذا نجد أن الجرجاني في كتابه الذائع الصيت "التعريفات" يقول عنها: بأنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب

فهوية الإنسان .. أو الثقافة .. أو الحضارة، هي جوهرها وحقيقتها، ولما كان في كل شيء من الأشياء –إنساناً أو ثقافة أو حضارة– الثوابت والمتغيرات .. فإن هوية الشيء هي ثوابته، التي تتجدد لا تتغير، تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة[١].

وتتمثل الهوية في مجموع الأساليب التي يتميز بها المجتمع، وتشمل العادات والمعتقدات واللغة والتراث المسجل والشفوي والإنتاج الفكري والأدبي والفني، ويجد فيها وسائله للتعبير عن الذات[٢]

١-٢ الهوية الثقافية:

يمكن تعريف **الهوية الثقافية والحضارية** لأية أمة من الأمم بأنها القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخر[١٠]، ومنه فإن الهوية الثقافية تتحقق وتتجسد في المجتمع عندما يتكلم أفراده نفس اللغة، ويتبعون نفس الدين والمعتقدات ويقومون بنفس الأنشطة الاجتماعية.

وهناك من يرى" أن الهوية معناها في الأساس التفرد، والهوية الثقافية هي التفرد الثقافي، بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وقيم ونظرة إلى الكون والحياة[٣] "

كما أنها" ذلك المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ لجماعة بشرية تشكل أمة أو ما في معناها بهويتها الحضارية في إطار ما تعرفه من تطورات بفعل ديناميكيتها الداخلية ،وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء، وبعبارة أخرى هي المعبر الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده وما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يأمل[٤]"

وقد لوحظ أن هناك تغييرات كثيرة في الهوية الثقافية بوجه عام والهوية الثقافية العربية والإسلامية على وجه الخصوص، وربط البعض هذه التغييرات بما أحدثته العولمة **Globalization** من متغيرات كان لها

أثرها البالغ في اضطراب مفهوم الهوية بشكل عام. ومن مظاهر العولمة انتشار القنوات الفضائية المتزايد واتساع دائرة الجمهور الذي يتعرض لها، وازدادت أهمية تلك القنوات وتعاظم تأثيرها على فئات الجمهور، وجمهور المراهقين والشباب بوجه خاص، حيث أثبتت الدراسات العلمية أنهم أكثر الفئات تعرضاً لتلك القنوات [٥]

٢- **خصائص الهوية الثقافية:** يمكن التعبير عن خصائص الهوية الثقافية في النقاط الآتية:

- أنها مكتسبة موروثة يصنعها تاريخ الأمة، وثقافتها، وما تمر به من تجارب وخبرات، وهي المعبرة عن ذاتها الجماعية، أو الرمز الذي يجتمع عليه كل أفرادها ،انتماءا واعتزازا، تعلقا وانتسابا، حيث يشكل المساس بها مساسا بكيان الماضي للأمة كلها، لأنه يعد تشكيكا في ماضيها وطعنا على حاضرها، ويأسا من مستقبلها، فهي وإن كانت من صنع الماضي إلا أنها موجودة في حاضرها، مما يجعل منها دافعا وحافزا للبحث عن المستقبل الأفضل

- موجودة في الضمير الجمعي للأمة وملك لها، إلا أنها قابلة للتطور والتفاعل مع الهويات الأخرى.

- هي عملية اعتقاد وإرادة، ذلك أن الاعتقاد والإرادة وليس الإلزام هما ما يميز الهوية، فالهوية ليست القانون، ولا يجب أن تكون مساوية له، فالإسلام مثلا وهو أحد المركبات الأساسية للهوية في كل الأقطار العربية قد يتعارض مع القانون جزئيا أو كليا، فالالتزام بتعاليم الإسلام لا تنبع هنا من إلزامية القانون، بل من اعتقاد الشعوب[١١].

- الهوية عملية أيديولوجية، حيث تصطفى وتؤدلج من قبل نخبة سياسية معينة، وذلك بانتقاء عناصر معينة لتثبيتها، ثم تحدد الهوية الأصلية من خلالها وتضفى عليها هالة من القداسة والسمو[١٢].

-الهوية تقوم على مبدأ الوحدة والتنوع الذي يشكل عامل إثراء وإخصاب لها، ويمكن تصنيف الأفراد بحسب ما اكتسبوه من ثقافات إلى قوالب متعددة، تتميز عن بعضها البعض من خلال خصائص مشتركة لكل قالب ثقافي معين، بحيث تشكل هذه الخصائص المميزة هوية هذا القالب وعلى مستوى المجتمعات.

- الهوية عملية تميز واختلاف كونها تنفرد بجملة خصائص تجعل صاحبها مغايرا لغيره، فمهما تشابه الناس، واشتركوا في الخصائص الحضارية والثقافية التي تميز الإنسان نوعيا عن غيره من الكائنات، فإنهم لا يعبرون عن أنفسهم إلا من خلال أشكال فردية شديدة الخصوصية.

- الهوية عملية تفاعل وتكامل، حيث أنها تتشكل عبر تفاعل وتكامل مجموعة من الرقائق التي تتراكم عبر الزمن، وهذا التفاعل والتكامل بين المكونات هو ما من شأنه خلق التوازن داخل الهوية، وتغييب أسباب الصراع والنفي، الأمر الذي يسهم في الاتفاق العام حولها، سواء من طرف الجماعة أو الأفراد المكونين لهذه الجماعة.

– الهوية عملية ديناميكية، كونها تتكون من مجموعة من العناصر، فهي بالضرورة متغيرة، في ذات الوقت الذي تتميز فيه بالثبات، فهي كالكائن البشري الذي يولد ويشب ويشيخ، ومع المراحل العمرية المختلفة تتغير ملامحه وتصرفاته وذوقه وكل عناصر شخصيته، لكنه يبقى هو نفسه[١٣].

٣– مكونات الهوية الثقافية :الشكل التالي يبين أهم مكونات الهوية الثقافية :

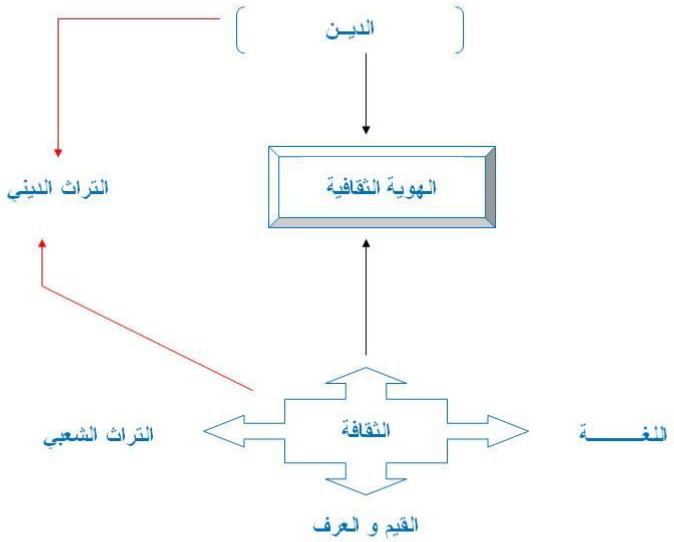

٤– الخصائص الثقافية للمجتمع الجزائري:

إن الثقافة ذات مدلول شامل يغطي الجوانب المختلفة لحياة الإنسان الروحية والفنية والمادية وما ينشأ عنها من تفاعل، كل ذلك في بيئة معينة من ضروب المعيشة وأساليب التعامل وأنماط السلوك والتصرف، فالثقافة الوطنية بهذا المفهوم إنما هي نظرتنا إلى الحياة وتفسيرنا للوجود ونضالنا عبر التاريخ وتصورنا للقيم والعلاقة الاجتماعية، ولذلك فإننا نجد جزءا من ثقافتنا الوطنية كل ما أنتجناه عبر العصور من فكر وفن وما أنجزناه من عمران وما صنعناه من أدوات وما استعملناه من أزياء الملابس وما تور تناه من عادات وتقاليد في شتى المجالات، إن دعائم ثقافتنا الوطنية هي نفس الدعائم التي تنهض عليها شخصيتنا الوطنية أي ديننا الإسلامي ولغتنا العربية وتاريخنا بكل مراحله.[٦]

وإن علماء الاجتماع والباحثين والفلاسفة المنظّرين لفكر الأمّة والدّولة يكادون يجمعون على أنّ المقوّمات الأساسية التّي تعبّر عن الشّخصيات والثقافات الوطنيّة والقومية للأمم والمجتمعات وتمثل معيار الانتماء الاجتماعي لهذه الأمم لا تكاد أن تخرج على ثلاثة مقومات أو عناصر أساسية يجمعونها في ثلاثية اللّغة والدّين والمجال الجغرافي، وهي المقومات التي تعبر بوضوح عن الوجود النّوعي لأي مجتمع وتفرّده عن غيره من المجتمعات ويشكّل أفراد المجتمع من خلالها ماهيتهم الاجتماعية، والأمّة الجزائرية كغيرها من أمم هذا العالم الذي صاغت شخصيّتها وثقافتها عبر سلسلة من الأحداث التّاريخية والملحمية حتّى وصلت إلى الشكل الذي أصبحت تعرف به دون غيرها من المجتمعات والأمم وأصبح أفرادها يعبّرون عن وجودهم من خلال هذه العناصر الثقافية وذلك في مواثيقهم وعهودهم الرسمية التي اقتضتها التنظيمات المعاصرة للدّول الحديثة، التي بيّت بوضوح أن العناصر الأساسية التي تعبّر عن الثقافة الوطنية الجزائرية تتمثل في(الدّين واللّغة والوطن عناصر لشيء واحد هو الشخصية الوطنية، ومن ثمّ فالفصل بين عناصر الشخصية الوطنية هو نوع من الفصل المصطنع بين مكونات الشيء الواحد الذي إذا سقط منه عنصر ذهبت حقيقته وتلاشت ماهيته، فالانتماء للجزائر لا يتمّ إلاّ بالانتماء إلى هذه العناصر كلها[٧]، وهي العناصر الأساسية التي بنت عليها جمعية العلماء مثلا مشروعها التربوي الإصلاحي في الجزائر من أجل ووضّحت أنّها تتحدد في عنصر الإسلام الذي لا يتصور انفصاله عن اللّغة العربية ولا أنّ هذه الأخيرة مفصولة عن القرآن والإسلام، كما لا يتصور الجزائر باعتبارها وطنا إسلاميا عربيا مفصولا عن هذين العنصرين، وعبّر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن عناصر الثقافة الجزائرية بقوله: أن الأمّة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمي من جهة الدّين وهي ثلّة من المجموعة العربية من حيث اللّغة التّي هي لسان ذلك الدّين[٨] ليضيف الشيخ في موضع آخر بأن الجزائر وطن بربري قبل الإسلام يضم جماهير القبائل البربرية وأصولها الأولى، ووطن عربي إسلامي مند دخله الإسلام يصحب ترجمانه الأصيل وهو اللّسان العربي[٩].

هذه هيّ عناصر الثقافة الجزائرية التّي مثّلت معيار الانتماء الاجتماعي والتّفرد النّوعي للمجتمع الجزائري كما صاغتها وحدّدتها أدبيات الحركة الإصلاحية وناضلت من أجل تمكينها داخل الضمير الجمعي الجزائري، ضمن الإسلام الذي عاش الشعب الجزائري في ظلّه وفيه تمّ نموه وتحددت سماته الشخصية ومقوّماته الذاتية[١٠]، إلى اللّغة العربية التّي تمثّل قطعة من كياننا التّاريخي وشرط أساسي لوجودنا القومي وشهادة قاطعة بصحّة نسبنا الدّيني ونسبنا الجنسي[١١] وعنصر أساسي في هويتنا وشخصيتنا وطريقة تفكيرنا ومن هنا نشأ ذلك التلازم المنطقي والتّاريخي بين العربية والوطنية...فاللّغة تصاحب سلوكنا في كل لحظة وترافقنا في أطوارنا التّاريخية المتلاحقة، ممّا يجعلها أداة صادقة للتعبير عن حياة المجتمع الجزائري[١٢].

هذه الثقافة التي تمكن الفرد من خلال اكتسابها والتنشئة على خصائصها من التفاعل الايجابي مع باقي أفراد المجتمع، وهو الدور الذي يقع على عاتق وسائل الإعلام الخاصة ويترتب عليها مراعاته في تنشئة الطفل الجزائري، حتى لا ينشأ مبتور عن مجتمعه أو ينشأ حاملا لثقافة تناقض ثقافة مجتمعه.

وسائل الإعلام والهوية الثقافية بين التعزيز والاستلاب:

فتحت ثورة المعلومات عصراً جديداً للبشرية يقارن بعصر الثورة الصناعية التي غيرت كثيراً من أوجه النشاط الإنساني ، و جاءت ثورة المعلومات لفتح آفاق جديدة للمعرفة و الثقافة ، و أصبح الإنسان قادراً على التواصل مع الآخر دون حواجز أو موانع ، و تعددت مصادر المعرفة التي يمكن أن ترفع السوية الثقافية للمتعاملين معها ، و لعل أبرز وسائل الاتصال الحديثة تأثيراً في ذلك هي الوسائل التقنية كشبكة الإنترنت و البريد الإلكتروني (e.mail) و الرسائل الهاتفية النصية (s.m.s.) التي تجاوز دورها كوسيلة للاتصال إلى مصدر من مصادر الثقافة و المعرفة .

التنشئة الاجتماعية لأي فرد داخل أي مجتمع هي بالأساس العملية التي يتم من خلالها إكساب الفرد معايير ومعتقدات وسلوكيات الجماعة التي ينتمي إليها أو ما نشير إليه بثقافة المجتمع، وهي وحدها التي تجعل منه فردا مقبولا داخل هذه الجماعة وقادرا على التفاعل معها من خلال القدرة على فهم رموزها الثقافية، وإن الوصول إلى اكتساب المعايير والسلوكيات والمعتقدات الثقافية يتم عبر مجموعة من المؤسسات الاجتماعية التي أعدت خصيصا للقيام بهذه الوظيفة الحيوية.

ولأن كانت في السابق مؤسسة الأسرة هي أهم مؤسسة اجتماعية كان يقع عليها عبء التنشئة والقيام بمختلف وظائفها، إلاّ أن تعقد الحياة الاجتماعية وظهور وظائف جديدة فوق قدرة الأسرة وخروج المرأة إلى العمل وتخليها عن بعض مهامها الكلاسيكية، أدّى إلى انتقال مركز الاهتمام في التنشئة الاجتماعية إلى مؤسسات أخرى كالمدرسة، مثلا التي كانت تمتاز بأنها أكثر المؤسسات الاجتماعية تنظيما وخدمة لأهداف المجتمع، غير أن الانفجار المعرفي الذي شهده العالم والتطور الكبير الحاصل في وسائل الإعلام والتطبيقات التكنولوجية، خاصة مع الخصائص التي تتميز بها هذه الوسائل من القدرة على الانتشار والجاذبية والإثارة ومخاطبة جميع حواس الإنسان وغيرها، جعلها بحق الوسيلة الأكثر تأثيرا في التنشئة الاجتماعية خلال هذا العصر وربما لعصور لاحقة، وهو ما جعل ما كلوهانM. Mac-luhan يقول عنها أنها استطاعت أن تقلب الأوضاع الثقافية والاجتماعية والخلقية والسياسية قلبا شاملا لا مجال إلى نكرانه.

وهو الأمر الذي جعل البعض يرى بأن وظيفة التثقيف وبناء الهوية الثقافية للأفراد التي تتوقف عليها التنشئة تمثل أهم الوظائف التي تؤديها وسائل الإعلام لما تشمل عليه من تعليم وتهذيب وحماية للتراث ونشره وتوسيع أفاق الفرد وإكسابه مهارات وقدرات في كافة مراحل عمره، فهذه الوظيفة تعتبر ضرورية

لخدمة مصلحة الجماهير الثقافية والوطنية لأنه لا يمكن الاستغناء عنها لما لها من أهمية كبرى في حياة الإنسان وعلى وسائل الإعلام إيصالها من خلال النتاج الفكري الموجه للمتلقين.[١٣]

وحسب مراد زعيمي فإن من وظائف وسائل الإعلام نقل التراث الثقافي والتاريخي من جيل إلى جيل والمساعدة في تنشئة الجيل الجديد من الأطفال أو الوافدين الجدد على المجتمع.[١٤]

ولهذا يرى مصطفى المصمودي أنه لا يمكن تصور الثقافة كداعم لهوية المجتمع وخصوصيته الوطنية دون تعبير أو إبلاغ وأنه لا حظ لأي ثقافة كانت من الوجود إذا لم تؤازرها أجهزة الإعلام، كما أنه لا سبيل أمام أجهزة الإعلام دون زاد ثقافي يعبر عن الشخصية الوطنية يشد اهتمام الجمهور إليها ويسمح لها بإبلاغ رسالتها في مختلف المجالات،[١٥] بل يعدها ليوبيس بمنزلة الجهاز العصبي للثقافة وبناء هوية أي مجتمع، ويتحدث ماكلوهان M. Mac–luhanعلى أن النظام الاجتماعي المتمثل في القواعد الموضوعة والمعترف بها، والتي تتحكم في العلاقات بين الأفراد والجماعات يتحدد بطبيعة وسائل الإعلام التي تتم من خلالها عملية الاتصال.

إن هذا التأثير الكبير الذي أصبحت تمارسه وسائل الإعلام على مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، ترك العديد من العلماء والباحثين يرون أنها تعد بحق أهم مؤسسة اجتماعية في عملية التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعي، ولا سيما بالنسبة للأطفال والشباب،[١٦] وأنها الوسيلة القادرة على بناء الهوية الوطنية ومواجهة التحديات التي تواجهها المجتمعات المعاصرة أمام العولمة الثقافية والاختراق والغزو الثقافي الذي أصبح يهدد الكيان الثقافي لكثير من الشعوب والمجتمعات، ومن بين هؤلاء نجد عبد الحميد حيفري الذي يتحدث عن إحدى أهم هذه الوسائل وهو التلفزيون مبينا المهمة الأساسية التي تقف أمام برامجه اليوم بأنها الاتجاه المباشر نحو معالجة القضايا الملموسة المتعلقة بحياة الشعب وتعبئة طاقات الجماهير، حتى تكون فعلا في خدمة القضايا الحيوية للجماهير كسبيل لتوعيتها سياسيا وأيديولوجيا[١٧]، وأن التلفزيون حسبه يمثل جهازا هاما لأنه قناة تنتقل عبر برامجه محتويات ثقافية أيديولوجية، وأنه مطالب أكثر من أي وقت مضى بالتأكيد على الهوية الوطنية وعلى الارتباط بالتراث الثقافي الأصيل بعد التجربة الصعبة التي مرّ بها خلال الاستعمار وذلك عندما يتحدث عن التجربة الجزائرية، وهو ما يؤكد عليه الوزير الأسبق للإعلام والثقافة الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي بأنه يجب على التلفزيون أن يركز على انبعاث الانفتاح الثقافي المحلى وأن يساهم في إعطاء فكرة صائبة عن أصالة شعبنا، وهذه النقطة تفرض على التلفزيون أن يحقق تمجيد القيم الوطنية ويتفادى كل ما لا يمت بأي صلة لواقع البلاد وأن يجتهد من أجل الوصول إلى لغة شخصية أصيلة وهي اللغة العربية.[١٨]

أما مصطفي مصمودي فيرى أن وسائل الإعلام اليوم عليها أن تمارس وظيفتها التثقيفية من خلال:

– تناقل التراث بين الأجيال وإبرازه وجعله السراج الذي ينير حاضرنا ويصل بين ماضينا ومستقبلنا.

– ضمان الأمن الثقافي للمجتمع حتى لا يكون ضحية الغزو الأجنبي والفكري.

– الحفاظ على اللغة وتطويرها، حيث أن أجهزة الإعلام هي المسئولة الأولى على وضع اللغة والمحافظة عليها من الاندثار والذوبان تحت تأثير اللغات الدخيلة والمصطلحات الأجنبية وهي مطالبة في الوقت نفسه بإثرائها حتى تكون أفضل أداة وصل بين ماضينا ومستقبلنا.

– حماية الهوية الثقافية وذلك بهدف تمكين الثقافات الوطنية من التكامل ومن الإثراء بالاحتكاك بغيرها وتمكين الأمة من تعريف الرأي العام العالمي بقيمها الثقافية والاجتماعية وجلب التقدير والاحترام لها.

– كما أنه على أجهزة الإعلام صون الذاتية الثقافية من الغزو الفكري الأجنبي ووقاية مقومات أصالتها من مخاطر التيارات الثقافية الأجنبية التي تشوه طبيعتها وتضر بمستقبل المجموعة، فالذود عن تلك الذاتية التي هي أداة الوصل بين الأجيال المتعاقبة هو أمانة في عنق أجهزة الإعلام يتعين عليها صيانتها فإن أخلت بذلك كانت قد تهاونت في أداء رسالتها.[١٩]

ومنه يمكن القول بان هناك علاقة جدلية بين الإعلام بالهوية الوطنية بحيث أن المنظومة الإعلامية هي قوة فاعلة ومؤثرة في التعبير عن الهوية وتحديد ملامحها وتفاعلاتها ومقوماتها، وبالتالي فالإعلام يساهم في تشكيل الهوية الوطنية، التي هي بدورها تنعكس من خلال الصناعات الإعلامية والثقافية وتؤثر فيها وتصبغها بصبغتها

إذ يساهم الإعلام بدوره الاستراتيجي في الحفاظ على الهوية الوطنية ونشر مقوماتها وأسسها ومبادئها في المواطن يتوجب عليه أن يقدم الرسالة الهادفة الملتزمة الحرة والمسؤولة محليا ودوليا، فالمادة الإعلامية ذات الجودة العالية وذات المصداقية هي التي يختارها الجمهور ويتفاعل معها، لكن إذا كانت المادة لا تستوفي شروط المنافسة والجودة والمصداقية فإنها لا تستطيع المقاومة، وبذلك فإنها تفشل في الحفاظ على الهوية الوطنية، بل ستفسح المجال لإضعافها وأفولها مع مرور الزمن، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى انتشار ظاهرة الاغتراب حيث يعيش الفرد في فضاء غريب عنه بعيد عن بيئته الطبيعية وهويته الأصلية الحقيقية، ويصبح بذلك تائها ومشردا بين عالمين، عالم مادي يعيش فيه في الحقيقة والواقع وعالم الآخر الذي تقدمه وسائل الإعلام والصناعات الثقافية وهو بعيد كل البعد عن العالم الأول، وهذا ما يؤدي في نهاية المطاف إلى انفصام وازدواج الشخصية وانجراف وانحلال وذوبان في عالم الآخر على حساب النسيج القيمي والأخلاقي والموروث الثقافي والاجتماعي .[٢٠]

فبفعل العولمة أصبحت الثقافة كسلعة عالمية تسوق كأي سلعة تجارية أخرى ومن ثم بروز وعي وإدراك ومفاهيم وقناعات ورموز ووسائط ثقافية عالمية الطابع وهي محاولة لوضع شعوب العالم في قوالب فكرية موحدة وذلك لسلخها عن ثقافتها وموروثها الحضاري، فالعولمة نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن نظام يريد رفع الحواجز والحدود، إنه نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية للأمة من أي محتوى، ويدفع إلى التفتيت والتشتيت ليربط الناس بعالم اللاأمة واللاوطن واللادولة [٢١]

فوظيفة المنظومة الإعلامية في إطار العولمة هي أن تتسلى وتتلهى وتعلم وترسخ القيم والمفاهيم والمعتقدات وأنماط السلوك الأمريكي على الآخرين، كما يرى أحد الخبراء الأمريكين، ولتحقيق ذلك صارت ميزانية الإعلام موازية تماماً لميزانية الدفاع في بعض الدول، فإحصاءات عام ١٩٨٦م تقول إنه بلغ رقم اقتصاد الإعلام في الغرب والاتصالات مبلغ (١١٧٥) بليون دولار تقريباً منها (٥٠٥) بلايين للولايات المتحدة الأمريكية، و (٢٦٧) بليوناً للجماعة الأوروبية، و (٢٥٣) بليوناً لليابان، و (١٥٠) بليوناً فقط للآخرين في العالم .. هذه الميزانيات الضخمة للإعلام في الشمال جعلته يتحكم بقوة في الإعلام المتدفق، في اتجاه الجنوب الأمر الذي أحدث خللاً في المنظومة الإعلامية، وقد فشلت جميع الجهود والمبادرات التي بذلت في إطار الأمم المتحدة لوضع أسس لقيام نظام إعلامي جديد يحقق التوازن بين الشمال والجنوب[٢٢]

وهناك الدراسات الكثيرة التي تبين معاناة شعوب شرقية (ليست إسلامية) وسائرة في الفلك الغربي كاليابان وكوريا الجنوبية والفلبين من العولمة حيث نجد في دراسة أجريت على (٢٥٥) طالباً فلبينياً وجد أن التعرض للمواد التلفزيونية الأمريكية قد ارتبط إيجابياً بتأكيد هؤلاء الطلاب على قيمتي: "المنفعة والمادية"، باعتبارهما القيمتين الأكثر أهمية في حياتهم، في حين تدنت لديهم قيم فلبينية أصيلة مثل: الصفح، والتسامح، والتضحية، والحكمة[٢٣]

وإذا كانت بعض دول الغرب نفسه أو من هو قريب منها يشكو من عولمة الثقافة على الهوية، حيث نجد أن فرنسا مع أنها غربية نصرانية، ولكن بسبب اختلاف اللغة فإنها أكثر الدول الغربية تشكو من عولمة الثقافة ومن هيمنة اللغة الإنجليزية، والخوف على الهوية الفرنسية ولذلك لجأ الفرنسيون إلى وضع الثقافة في خانة الاستثناء، لأنهم تنبهوا إلى أن قوة الإنتاج الثقافي الأمريكي تؤدي إلى التغيير التدريجي في معايير السلوك وأنماط الحياة[٢٤].

وهذه الأمثال توفرها مئات الدراسات في أنحاء العالم من خوف المثقفين على هوية شعوبهم من العولمة الأمريكية، وإذا انتقلنا من العقائد التي هي أصل الهوية إلى اللسان واللغة التي هي أداة التفاهم والتواصل، وهي وعاء الفكر وقالبه الحي، وما نراه اليوم من طغيان الثقافة الغربية، حيث تشكل اللغة نسبة عالية من الإسهام في نقلها، ولا أدل على ذلك من أن (٨٨%) من معطيات الانترنت باللغة الإنجليزية، و(٩%) بالألمانية، و(٢%) بالفرنسية، و(١%) يوزع على باقي اللغات[٢٥].

ويبين هنتجنتون في كتابه صدام الحضارات أهمية اللغة في الصراع حيث أن توزع اللغات في العالم عبر التاريخ يعكس توزع القوة العالمية فاللغات الأوسع انتشاراً: الإنجليزية، الماندارين، الأسبانية، الفرنسية، العربية، الروسية. إما أنها أو كانت لغات دول إمبراطورية جعلت شعوباً أخرى تستخدم لغتها.

كما أن التحولات في توزع القوة، تؤدي إلى تحولات في استخدام اللغات، حيث قرنان من القوة البريطانية والأمريكية الاستعمارية والتجارية والصناعية والعلمية والمالية، تركا ميراثاً ضخماً في التعليم العالي والتجارة والتقنية في أنحاء العالم[٢٦].

كما أن إحصاءات منظمة اليونسكو عن الوطن العربي تشير إلى أن شبكات التلفزيون العربية تستورد ما بين ثلث إجمالي البث كما في سوريا ومصر، ونصف هذا الإجمالي كما في تونس والجزائر، أما في لبنان فإن البرامج الأجنبية تزيد على نصف إجمالي المواد المبثة إذ تبلغ (٥٨.٢%)[٢٧]. ومعلوم أثر هذه البرامج على العقائد والقيم والأخلاق والعادات واللغة.

أما إذا انتقلنا إلى السلوك والأخلاق فقد أشارت دراسة في السعودية (لناصر الحميدي) إلى أن التأثير على الجوانب الأخلاقية يأتي في الدرجة الأولى، مثل: الترويج للإباحية، والاختلاط، وما إلى ذلك مما يخالف القيم الإسلامية، وإغراء النساء بتقليد الأزياء الغربية وأدوات الزينة، وكذلك التأثير على الروابط الأسري [٢٨]

وفي الأخير يمكن التأكيد على أن التحدي الإعلامي يعد من أكثر التحديات خطورة على الهوية ، حيث تكمن خطورة هذا التحدي في ما تحمله المضامين الإعلامية المقدمة من رموز ومضامين تتنافى وهويتنا الثقافية وللأسف فإن وسائل إعلامنا العربية، وخاصة القنوات الفضائية، لا تزال تغزو البيوت ببرامج سيئة تعتمد على هز الأرداف والأكتاف، وإغراق المشاهد بالإعلانات، أو بالبرامج والأفلام المستوردة أو المقلدة، فضلا عن برامج التسلية والمسابقات واستهلاك الوقت، والتي لا هم لها سوى استدراج المشاهد للمزيد من الاستهلاك عبر الإعلانات التجارية أو تسطيح مستواه الأخلاقي والفكري، لتكون بذلك شريكة في هذا الغزو بشكل أو بآخر.

خاتمة :

لكل أمة هويتها الثقافية التي تعتز بها وتحاول جاهدة للحفاظ عليها بما يتناسب مع التطورات المتسارعة في عالمنا المشبع بمختلف الثقافات والأمة العربية كباقي الأمم لها ثقافتها العريقة بالإضافة إلى عناصر تكوينها .

ونحن اليوم مطالبين أكثر من أي وقت من الحفاظ على هويتها من تحديات العولمة بكل الوسائل المتاحة لدينا وعلى رأسها وسائل الإعلام هذه الأخيرة التي تعد سلاح ذو حدين يقتل و يحي الثقافات كل على حساب الأخرى.

الإحالات والهوامش

[1] د. محمد عمارة: مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ، فيفري ١٩٩٩، ص: ٦.

[2] Hogan, J. (1999). The Construction of General National Identity ices in Television Advertisement of Japan and Australia. Media Culture & Society, vol, 21(6) P. 744

[3] أمين ، جلال ، 1998 ، العولمة و الهوية الثقافية والمجتمع التكنولوجي الجديد، مجلة المستقبل العربي، العدد ، 234ص ٦١

[4] الجابري، محمد عابد، 1998 ، العولمة و الهوية الثقافية : عشر أطروحات، مجلة .المستقبل العربي، العدد228 ، ص ١٤

[5] محمود حسن إسماعيل :استخدامات المراهقين للقنوات الفضائية الدينية والاشباعات المتحقق منها. بحث منشور بالمجلة العلمية لبحوث الرأي العام، المجلد الخامس – العدد الثاني، ص٢٨٧

[6] – مقرارات اللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني، الدورة ٥، جوان ١٩٨١، منشورات حزب جبهة التحرير الوطني، الجزائر.

[7]– عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، دار الأمّة، الجزائر،١٩٨٨، ص٥٥.

[8]– محمد البشير الابراهيمي، الاثار، ج١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧، ص٥١.

[9]– نفس المرجع ، ص٣٧٨.

[10]– محمد الصالح الصدّيق، الإمام عبد الحميد ابن باديس جهاد ومواقف، مجلة الوعي، العدد١، ١جويلية ٢٠٠٢ ، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر ، ص١٤.

[11]– محمد البشير الابراهيمي:، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٦.

[12]– عزالدين صحراوي، اللّغة العربية في الجزائر: التّاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعيةّ، العدد ٥، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعيةّ، جامعة بسكرة، جوان، ٢٠٠٩، ص(٩٤–٩٥).

[13]– سامية عواج، الدور الثقافي للصحافة المكتوبة، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد ٢٢٦، ٢٠١٤/١٢/١٩، سطيف، ص٢.

[14]– مراد زعيمي، مؤسسة التنشئة الاجتماعية، دار قرطبة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٥٣.

[15]– مصطفى المصمودي، النظام العالمي الجديد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص١٧٢.

[16]– عيسى الشماس، تأثير الفضائيات التلفزيونية الأجنبية في الشباب، مجلة الباحث، دمشق، المجلدة٢١، العدد الثاني ٢٠٠٥، ص١٩.

[17]– عبد الحميد حيفري، التلفزيون الجزائري واقع وأفاق، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص٢٣.

[18]– نفس المرجع، ص٦٤.

[19]– مصطفى مصمودي، مرجع سابق، ص١٧٧.

[٢٠]– محمد قيراط :وسائل الإعلام والاغتراب والهوية الوطنية نشر بجريدة الشروق اليومي الجزائرية ٢٤-٠٣- ٢٠١٠

[٢١] –نعيمة شومان :العولمة بين النظم التكنولوجية، ط١ ، بيروت : موسسة الرسالة ، ١٩٩٨، ص ٦٥

[٢٢] – محمود سمير المنير: العولمة وعالم بلا هوية ، مصر: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ، ٢٠٠٠، ص: ١٣٠-١٣١.

[٢٣] د. باسم علي خريسان: العولمة والتحدي الثقافي ، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ١٣٢.

[٢٤]– د. عمار طالبي :دراسة بعنوان العولمة وأثرها على السلوكيات والأخلاق ،مجلة الرائد، تصدر عن الدار الإسلامية للإعلام بألمانيا، العدد ٢٣٦ ، ماي ٢٠٠٢م، ص: ١٢ .

[٢٥] العولمة وقضية الهوية الثقافية في ظل الثقافة العربية المعاصرة، محمد بن سعد التميمي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ص: ١١١.

[٢٦] صامويل هنتنجتون :صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي، ، ترجمة طلعت الشايب وتقديم د. صلاح قنصوة، ١٩٩٩م، ص: ١٠٣.

[٢٧] العرب والعولمة، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، تعقيب نبيل الدجاني، ط٢، ١٩٩٨م، ص: ٣٣٥.

[٢٨] د. عمار طالبي : مرجع سبق ذكره ، ص: ١٠.